مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 16 العدد: 02 السنة 2024 ص 130 - 147

تاريخ الإرسال:2024/02/27 تاريخ القبول: 2024/10/17
تاريخ النشر: 2024/10/30

التناقض وفن الخطابة السوفسطائية
Contradiction and Sophistical Art of Rhetoric

نور الدين هالي[1]
جامعة قسنطينة 2 ، (الجزائر).
noureddine.hali@univ-constantine2.dz

الملخص:

يتناول هذا المقال العلاقة بين التناقض وفن الخطابة السوفسطائية، فقد لعب التناقض في الفكر اليوناني قبل السفسطائيين دورا أساسيا في بحثهم لتفسير الطبيعة والحياة، لكن البحث النظري آنذاك لم يحقق نتائج عملية مقبولة لدى الجميع، وهذا ما أدى إلى ظهور الحركة السوفسطائية، وبرز توجّه التشكيكي مع بروتاغوراس، وآخر عدمي مع جورجياس.

لقد شكّك السفسطائيون في كل شيء، مثل المفاهيم المنطقية والقيم الأخلاقية وغيرها، وهكذا ظهر التناقض إلى جانب العقل، ووفق هذه المفارقة، سنتناول في هذا المقال دور التناقض في تأسيس فن الخطابة عند السفسطائيين وكذا انتقالهم باللغة من كونها أداة للتعبير والتواصل إلى معيار مؤسس للحقيقة.

الكلمات مفتاحيّة: السوفسطائية؛ تناقض؛ حقيقة؛ جدل؛ خطابة.

Abstract:

This article examines the relationship between contradiction and the sophistical art of rhetoric. Contradiction played an important role in Greek thought during their search to explain nature and life before the sophist. But the theoretical result did not arrive at positive conclusions acceptable to all. This is why the sophistic movement emerged, as the Skeptical

approach appeared with the sophist Protagoras and the Nihilistic approach with the sophist Gorgias.

The sophists doubted everything, like logical concepts, ethical values, etc. There emerged contradiction alongside reason. According to this presented paradox, this article detects the role of contradiction in establishing the sophistical art of rhetoric as well as transforming language from a means of speech and communication to a criterion of truth.

key words: Sophistic; Contradiction; truth; dialectics; rhetoric.

---

[1] المؤلف المرسل: نور الدين هالي، noureddine.hali@univ-constantine2.dz

1.مقدمة:

أثريت الحياة الفكرية في بلاد اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد، بظهور فئة من الخطابيين عرفوا بالسوفسطائيين، برزوا كرواد في فن الخطابة، وقد ساد هذا التوجه الفكري نتيجة لما وصل إليه فلاسفة ومفكرو اليونان الأوائل، بعد أن تعددت الآراء وكثرت المذاهب التي تفسر طبيعة الوجود، رأت هذه الفئة من السوفسطائيين، أن كلما هو ظاهر يتضمن حقائق مضمرة، يتطلب البحث فيه تأملات إضافية، وما فتئت أن أثيرت أسئلة حول الإنسان نفسه بوصفه ذات مدركة، فانكشفت لهم مسائل أخرى أكثر تعقيدا من مسائل بحثهم في الوجود. في ظل هذه التعقيدات، اتجهت بعض الأفكار إلى التأكيد على أن كل ما هو موجود متناقض داخليا، في وحدة تشكل الكلي باجتماع المتناقضات، وفق قانون عام وكلي يحكم الوجود، ويحقق التناغم والانسجام والتوافق بين العناصر المتناقضة، ومن ثمة اتجه البحث في اللغة عن الكلمات المعبرة عن الطبيعة التناقضية الملازمة لتلك العناصر، وكذا البحث في الجمع بين المفاهيم المتناقضة، بهدف التعبير عن الجوهر المتناقض

في الأشياء، وعن وحدة الأضداد، فتطورت الصور الخطابية لاسيما مع الحركة السوفسطائية وعند الخطباء اليونانيين عموما.

طغى فن الخطابة على الحياة العامة في أثينا، وسادت خطابات معبرة عن قضايا منطقية جاعلة من الشيء نفسه، وفي الوقت ذاته، مشابه وغير مشابه، وواحد وكثير، وساكن ومتحرك، في ظل معرفة تقوم على النسبية وتجعل من الإنسان الخاضع للتحول والتغير مقياسا للأشياء جميعا، وعلى الرغم مما حققه السفسطائيون من نجاح شعبي ومكاسب سياسية، ظهر سقراط مستخدما منهجهم الجدلي بشكل تهكمي لدحض آرائهم، إذْ رأى أن فن الخطابة والكلام، لا يمكنه إظهار الحقيقة كغاية، إنما يُثبت قدرة صاحبه على الكلام والإقناع فقط، وهذا لا علاقة له بالحقيقة، في خضم هذا الجدل، سنعمل في هذا المقال على الإجابة عن التساؤل الآتي:كيف كان التناقض أساسا لفن الخطابة عند السفسطائيين؟ وللإجابة عن هذا التساؤل سنتناول بداية: جدل المتناقضات في المفهوم اليوناني القديم، ثم ننتقل إلى الحركة السوفسطائية لبحث مكانة التناقض في فن الخطابة عندهم، مع أبرز شخصيتين سوفسطائيتين وهما: بروتاغوراس وغورجياس، ومن ثمة، سنقف على مدى تحقيق فرضية أن التناقض هو أساس الخطابة عند السفسطائيين، وأن اللغة أصبحت عندهم معيارا للحقيقة.

2- جدل المتناقضات في الفكر اليوناني القديم: تعد المتناقضات عند اليونانيون القدامى مكوِّن من المكونات الضرورية للوجود وللفكر واعتقدوا بإمكان وحدة للأضداد دون أن ينتفي مبدأ الهوية وعدم تناقضها، وفي داخل هذه الوحدة، وفي قلب الأشياء يحدث هذا التفاعل بين المتناقضات. إن الأضداد تجتمع في وحدة، ولكن دون أن يمس مبدأ الهوية، وأن الأشياء تنطوي على التناقض، كما أن المتناقضات تحتفظ بهويتها وتتفاعل فيما بينها، فالتناقض قانون في الطبيعة، كما أنه قانون في الفكر،

إن التناقض بين الموجودات في الطبيعة هو الرابطة التي تربط بينها، وهو العقل المبثوث في الأشياء الطبيعية. ويؤثر بعضها في بعض من خلال هذه العلاقات عن طريق الديالكتيك.

عمل اليونانيون القدامى على كشف المبادئ والقواعد العامة، الكامنة وراء ظواهر الأشياء التي تحكم وجودها، ويعد التناقض واحد من هذه المبادئ التي تشكل القانون أو النظام الذي يحكم كل شيء في الوجود، وهذا التصور لا ينفي وجود المتناقضات، فكل الفلسفات تؤمن بمبدأ التناقض وبوجود المتناقضات ووحدة الأضداد، وهذا التفاعل بين الأضداد المستقلة، يعد ديالكتيكًا في باطن الأشياء وعلة انسجامها الظاهر. إن مبدأ عدم التناقض الأرسطي، لا يعني عدم وجود أضداد، إنما يعني أن الأضداد توجد بصورة مستقلة، فلا تختلط هويتها ولا يكون أحدها هو الآخر، وهذا ما عبر عنه جدل فريديريك هيجل Friedrich Hegel (1770–1831) وكذا الفلسفة المادية الديالكتيكية، إذ يلغيان مبدأ الهوية الذي تؤمن به الفلسفة القديمة. لقد فهم الكوسمولوجيون اليونان الأوائل الكون كوحدة للأضداد، وحدة الحار والبارد، واليابس والرطب والنور والظلام، وأن أحد الضدين يسيطر لفترة ثم يبدأ بالانحدار إلى أن يسيطر ضده.[1]

يقودنا البحث المعجمي إلى أن التناقض Contradiction هو تقابل بين الإيجاب والسلب في حدين أو قضيتن تحتويان على عنصرين لا يجتمعان ولا يرتفعان ولا وسط بينهما"،[2] أما الضد Contrary فهو مصطلح منطقي قديم، يدل على تقابل صفتين مختلفتين كل الإخلاف، تتعقبان على موضوع واحد ولا تجتمعان"،[3] والفرق بين التناقض والتضاد حسب ما ورد معجم أندري لالاند André Lalande، أن التعبير عن التناقض من الناحية الفلسفية مستمد مباشرة من أفكار قائمة على المنطق: كالصدق والكذب، فالقضيتان المتناقضتان لا يمكن أن تكونا صادقتين

وكاذبتين في الوقت نفسه، أما التضاد، فيكون بين قضيتين بحيث لا يمكنهما أن تكونا صادقتين معا، لكن يمكن أن تكونا كاذبتين معا.[4]

لا يمكننا القول بوجود تناقض دون وجود تعدد ومن هذا المنطلق، سنبرز باختصار نظرة الإغريق إلى طبيعة الوجود لحظة انتقالهم من التفكير الأسطوري إلى بدايات التأمل العقلي المجرد، لقد كانت إشكالية الوحدة والتعدد التي رافقت الإنسان القديم في تفكيره الأسطوري، حاضرة في ذروة تأملات المفكرين اليونانيين العقلية، فانطلقوا من بحثهم في تعدد العوالم ثم البحث في التعدد داخل العالم الواحد ووحدته، وقد ظهرت هذه المسألة مع أناكسيماندريس Anaximander (611 – 546 ق م)، الذي يقول بوجود عدد لا متناه من العوالم، وهذا التعدد الذي قال به أناكسيمندريس يمكن تفسيره على ثلاثة أوجه: أولًا ، أن أناكسيماندريس لا يهتم إلاّ بعالم واحد وهو عالمنا الذي يرى أنه سيستمر إلى الأبد. ثانياً، أنه يؤمن بتعاقب العوالم تعاقبا لا حدود له، معنى ذلك أن عالَما واحدا فقط موجود في أي وقت، يتم إنشاؤه من الأبيرون Apeiron، وعندما يفنى فإنه يصير مرة أخرى إلى أبيرون، وبعد ذلك ينشأ عالم آخر من ذلك الأبيرون بالطريقة نفسها. أما التفسير الثالث، أن أناكسيمندريس يعتقد بوجود عدد لا متناه من العوالم في الوقت نفسه، يولد كل منها من الأبيرون وستفنى في وقت ما.[5]

على عكس فكرة التعدد، ظهرت فكرة وحدة الوجود، عند كسينوفان Xenophanes (610 – 546 ق م) الذي كان مهتما بالقضايا الأساسية في علوم الطبيعة، كالظواهر الفلكية والأرصاد الجوية، وأصل الحياة، فقدم إضافة جديدة في هذه المسائل، لاسيما التفسير اللاهوتي، فسر كسينوفان العالم فاعتبره مكون من أربعة عناصر، وأن هنالك عدد غير متناه من العوالم غير قابلة للتغير، كما فسر تصاعد الأبخرة لتكوين السحاب بسبب حرارة الشمس، وتناول ماهية الإله ورأى أنه كروي محيط بالعالم لا يشبه البشر بأي حال من الأحوال، واعتبر الكون بجميع أجزائه

عقلا، وكان يعتقد أن الكثرة أقل شأنا من الوحدة.[6] بينما ظهرت عنده أول ثنائية، تفترض التراب والماء كمكونات أساسية، تُصنع منها جميع الأشياء الأخرى التي تنشأ وتنمو، فالتراب والماء هما المكونان الأساسيان للمادة، يبدو أن كزينوفان قد تبنى نظرية مفادها أن تاريخ العالم دوري، أي بمثابة سلسلة من الدورات المتتالية من المواد الموجودة في الكون، دورٌ يتم فيه فصل التراب والمياه عن بعضهما البعض إلى درجة ما، ودور آخر يتم فيه الخلط من جديد حتى تعود إلى الحالة الموحلة البدائية، وهي الحالة الأصلية حيث تنشأ الحياة، ويظهر جيل من الكائنات الحية عندما يتم فصل التراب والمياه، وتعد المرحلة التي نعيشها مرحلة التمازج.[7] داخل هذه الوحدة التي قال بها كسنوفان، هناك ثنائية التراب والماء، حيث ينشأ العالم بالتقائهما ويفنى بافتراقهما، وهذه التصورات مهدت الطريق للكشف عن فكرة التناقض الكامنة في حقائق الوجود.

تطورت فكرة العلاقة بين الوحدة والكثرة، فكشفت عن فكرة التناقض ووحدة الأضداد وهذا ما برز في هذا الصدد يخبرنا أرسطو عن الفيثاغوريين – أتباع فيثاغورس Pythagoras (570 – 495 ق م) – الذين اعتبروا العدد علة مادية للأشياء ومسؤولة عن صفاتها وأحوالها كما قالوا بأن عناصر العدد زوجية وفردية بحيث تكون الأعداد الفردية محدودة والزوجية غير محدودة، ورأوا أن العدد واحد مكون منهما معا المحدود واللاّمحدود لأنه زوجي وفردي في آن واحد، وأن العدد صادر عن الواحد، وأن السماء كلها مكونة من أعداد. كما قالو بوجود عشرة علل متناظرة ينشأ عنها الكون وهي على النحو الآتي: (المحدود، اللاّمحدود)، (الناقص، التام) (الواحد، المتعدد)، (الحق، الباطل)، (الذكر، الأنثى)، (السكون، الحركة)، (المستقيم، المائل)، (النور، الظلام)، (الخير، الشر)، (المربع، المستطيل)،[8] هذه المبادئ العشرة

المكون من أضداد ينشأ منها العالم، بما فيه القيم الأخلاقية والأشكال الهندسية والأعداد الرياضية.

من وجهة نظر منطقية، يبدو أن كل زوج يقصد به أنه مكوّن من عناصر متناقضة ومتضادة، لكن ليس هناك تفسير للطريقة التي تكون بها هذه الأضداد مبادئ، أو لماذا يتم اختيار هذه الأزواج الخاصة من الأضداد بدلاً من تلك التي ظهرت بشكل واضح في الكوسمولوجيات السابقة.[9] إن الأضداد عند فيثاغورس، كما وصفها هيجل، جامدة لا تتحول من حالتها إلى ضدها، فهي ساكنة لا عمل لها ولم تكن جدلية،[10] لكنها أصبحت في فلسفة هيراقليطس Heraclitus (535 – 470 ق م) أضدادا متغيرة متصارعة معبرة عن صيرورة الوجود.

3- السوفسطائيون وفن السفسطة: قبل سقراط كانت كلمة "سفسطائي" (□□□□□□□□) Sophistés تشير إلى كل شخص يمتلك حكمة (□□□□□) Sophia –حكمة في موضوع ما- لكن مع ظهور سقراط Socrates (469 – 399 ق م) اكتسبت كلمة سوفسطائي دلالة مهينة، وأصبح يُنظر إلى السوفسطائيين على أنهم منتهكو القانون والقيم الأخلاقية، ناهيك عن أنهم كانوا سببا في إعدام سقراط، ومِن قبله أدانوا أنكساغوراس وبروتاغوراس Protagoras (485 -410 ق م)، على الرغم من كون هذا الأخير واحد منهم،[11] يخبرنا بروتاغوراس في حواره مع سقراط على لسان أفلاطون Plato (447 – 327 ق م)، بأن السفسطة فن قديم وأن السوفسطائيين القدامى تخفوا خشية أن يكرههم الناس، فحجبوا فن السفسطة بالشعر، مثلما فعل شاعريْ الملاحم اليونانية: هوميروس Homer (عاش نهاية القرن الثامن قبل الميلاد) وهوزيود Hesiod (عاش بين 750 و650 قبل الميلاد)، وغيرهما من الفنانين الذين استخدموا فنونهم حتى لا يظهروا كسوفسطائيين، لكن بروتاغوراس صرّح بأنه لا يتفق معهم في استخدام أسلوب التّخفي، معترفا بأنه سوفسطائي، يعلّم

الناس السفسطة وفن الخطابة،[12] وهكذا لم يعد هذا المصطلح مرتبط بالحكمة، بل بالبراعة في الكلام، فأصبحوا في نظر أفلاطون مرتزقة وتجار المعارف يحترفون التلاعب بالألفاظ، كما سماهم أرسطو Aristotle (384 – 322 ق م) مكتسبي المال بالحكمة الزائفة.[13]

اتسع انتشار التوجه المعارض لأفكار السفسطائيين، بسبب نقد منهجهم في التعليم ورؤيتهم الجديدة للإنسان وللمعرفة، وهذا النقد رسم صورة سوداء لهذه الحركة، رافقتها منذ زمانها إلى يومنا هذا، وكان على رأس هذا الاتجاه المعارض سقراط، وقد نقل إلينا تلميذه أفلاطون في مختلف محاوراته فلسفة أستاذه القائمة على نقد السفسطائيين وهدم أفكارهم، لتأسيس حقيقة ثابتة يشترك فيها جميع أفراد البشرية، من أجل تحقيق العدالة والخير الأسمى.

لقد تميز السوفسطائيون بالبراعة في فن الخطابة والحجاج، ولم تكن مسألة الحقيقة تُطرح لديهم كغاية، إنما غايتهم كانت مدى القدرة على الحجاج والإقناع، ومع ظهور هذا النمط من الفكر، أصبح أثرياء أثينا يفضّلون المنهج السوفسطائي كسلاح في خطاباتهم السياسية، للوصول إلى مناصب مرموقة في المدينة.[14] لقد كان السفسطائيون أساتذة جوالين، يتنقلون من مدينة إلى أخرى، يلقون دروسهم في شتى المواضيع، وكان أهم موضوع عندهم تعليم فن الخطابة وهو الفن الضروري للحياة السياسية،[15] وبهذا لم يعد البحث عن الحقيقة مسألة مركزية في الخطاب السوفسطائي.

يُظهر البحث في الحركة السوفسطائية أن لها صورتان مختلفتان، صورة ذات وجه إيجابي كونها حركة مستنيرة التفتت إلى واقع الإنسان وعملت على حل مشاكله اليومية وعلى تحريره من قيد الطبيعة والأساطير السائدة حول الآلهة. وصورة ذات

وجه سلبي وفق رؤية سقراط وأفلاطون وأرسطو، بوصفها حركة هدامة لمعايير الحقيقة والأخلاق، متجاوزة مبادئ المنطق.

إن الصورة الإيجابية للحركة السفسطائية، تبدأ من المصطلح: سوفسطائي Sophist الذي لم يكن في أصله مصطلحا سيئا ولا مهينا، فقد كان المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus (480 – 425 ق م) يمدح فيثاغورس وصولون Solon (640 – 560 ق م)، ويصفهما بالسوفسطائين، وهذا من باب تمجيد الحكمة والرجل الحكيم، لقد قدّم الممثلون الرئيسيون للحركة السفسطائية مساهمة كبيرة في ثلاثة مجالات من الفكر الإنساني، وهي: الأخلاق والمعرفة واللغة، ومن أبرز هؤلاء السوفسطائيين نذكر بروتاغوراس وغورجياس Gorgias (483 –375 ق م) وهيبياس Hippias (443 – 399 ق م) وبروديكوس Prodicus (464/460 – 380 ق م) وأنتيفون Antiphon (480 – 411 ق م) وغيرهم، وعلى الرغم من أنهم لم يشكلوا مذهبا مشتركا، إلاّ أنهم يشتركون في وجهات النظر وطريقة التعليم،[16] وقد عاشوا خلال القرن الخامس ومنتصف القرن الرابع قبل الميلاد، ومع الحركة السفسطائية هذه، انتقل الفكر من البحث في الوجود إلى البحث في الإنسان، بوصفه ذات عارفة.

تظهر الصورة السلبية للحركة السوفسطائية من خلال ما ورد عن أفلاطون في مجموعة من محاوراته معنونة بأسماء أهم السفسطائيين وكانوا شخصيات رئيسة في تلك المحاورات، على سبيل المثال لا الحصر، نذكر محاورة "غورجياس" ومحاورة "هيبياس" ومحاورة "السوفسطائي" ومحاورة "بروتاغوراس"، في هذه المحاورة الأخيرة التي وردت كغيرها من المحاورات على لسان أفلاطون، يبرز موقف سقراط، من الفسطائيين حين يخاطب أبقراط، أحد شخصيات المحاورة، قائلا: "بحق الآلهة، ألا تخجل من أن تقدم نفسك لليونانيين بصفتك سوفسطائيا؟".[17] إن ما ميز

السوفسطائيين أيضا في تلك الفترة، أنهم كانوا يتلقون أجرا، وهذا السلوك لم يكن من عادة اليونانيين من قبل، فأصبحوا كالتجار هدفهم ما يحصلون عليه من مال مقابل تعليم أبناء الأثرياء من الشباب فن للخطابة، فوصفهم أفلاطون في محاورة السوفسطائي بأنهم مرتزقة يصطادون الشباب والأغنياء وأنهم تجار معارف وأنهم يتلاعبون بالألفاظ باستخدام فن الجدل،[18] لذا فهم مراوغون يخدعون محدّثيهم ويقنعونهم ببذل أموالهم كثمن للمعرفة، دون أن يطرحوا على أنفسهم مسألة معرفية، إن كان ما يقولونه صحيحا أم خاطئا.[19] وقد وصفهم سقراط بأنهم تجار معارف حين قال على لسان أفلاطون: " يحملون بضاعة المعرفة ويجوبون المدن يعرضونها أو يبيعونها بالتجزئة لأي زبون يريدها، ويثنون عليها مهما كانت، وقد لا يعلمون إن كانت مفيدة أم لا."[20] يتضح مما سبق أن السمعة السيئة التي وُصف بها السفسطائيين، كانت بسبب سقراط وأفلاطون، وكذا بسبب نزعتهم النسبية، واعتمادهم الجدل، وافتقارهم إلى معايير ثابتة، وقبولهم المال مقابل الدروس، وهذا ما لم يكن مألوفا لدى اليونانيين القدامى.

يمكن القول إن الحركة السفسطائية لم تكن تستحق الإدانة والنقد الجذري، فما يحسب لصالحها دورها الإيجابي في تحويل الفكر اليوناني إلى الإنسان وإلى الذات المفكرة، حتى أنهم في عهد الإمبراطورية الرومانية أصبح يطلق عليهم اسم أساتذة الخطابة وكتاب النثر، دون الإشارة إلى الغش أو الخداع.[21] وفق هذه الرؤية الإيجابية نحو الحركة السفسطائية، سنتناول من بينهم شخصيتين بارزتين، يكمل أحدهما الآخر، شكّلت أفكارهما نظرية متكاملة، توضح في مجملها قيمة التناقض ودوره في الخطابة السفسطائية.

4 – معيار الحقيقة ومشروعية التناقض عند بروتاغوراس: يعد البحث عن الحقيقة في الإنسان بدلا من الطبيعة مهمة رئيسية عند بروتاغوراس، هذا ما تبرزه العبارة

الشهيرة الواردة في كتابه: الحجج المتعارضة Opposing arguments، القائل فيها:"الإنسان مقياس كل الأشياء ما وجد منها وما لم يوجد."[22] إنها حقيقة تكمن في الإنسان ذاته متضمنة مبدأين متناقضين، "ما وجد" ونقيضه "ما لم يوجد"، وهذا ما عبّر عنه السابقون ممن بحثوا في الكون، بـ: "الوجود واللّاوجود"، وقد عمل بروتاغوراس على إثبات أن كل موضوع يمكن تناوله من خلال قضيتين متناقضتين،[23] وقد وظّف جدل التناقض كأداة للبرهنة على تعدد الحقائق، وعلى إمكانية توافق البشر، على الرغم من اختلاف رؤيتهم للأشياء.

لقيت آراء بروتاغوراس معارضة شديدة في عصره وخلال العصور اللاحقة، لكن بعض التيارات الفكرية أشادت بما وصل إليه، من بينها نذكر المدرسة البرغماتية الحديثة التي اعتبرت بروتاغورس سباقا للوصول إلى فكرة تعدد الحقوق والحقائق في الأفراد، وفق ما يحقق منفعتهم ونجاحهم العملي، فهؤلاء الأفراد ومنافعهم يجمعهم عالم مشترك يضمن حقوق ومصالح الجميع.[24]

ترك بروتاغوراس كتابا آخر سمّاه: عن الآلهة On the Gods، افتتحه بمقدمة قال فيها: "أمّا الآلهة فلا أعلم إن كانت موجودة أو غير موجودة لأن هنالك عقبات كثيرة تحول دون معرفتي بهذا منها غموض الموضوع وقصر الحياة".[25] وقد طرد من أثينا لما قرأ على الجمهور هذه المقدمة،[26] وهي الشذرة الوحيدة التي بقيت من كتابه عن الآلهة وكانت سببا في هروبه من أثينا وحرق كتبة.[27] تُبرز هذه الشذرة تكريسا للنزعة الشكّية في المعرفة وهي نزعة ميزت الحركة السفسطائية.

كان بروتاغوراس أول من قال أن لكل موضوع حجتين متناقضتين وأن دور المعلم تغليب الحجة الضعيفة لتكون حجة قوية، وهذا هو جدل المتناقضات الذي سماه أفلاطون في السوفسطائي فن التناقض الذي ينتمي إلى فن إنتاج الصور، وهو نوع

من الفن المبني على الرأي والتخيل البشري.[28] في هذا الصدد يمكننا الإشارة إلى إحدى نماذج هذا النوع من الجدل متمثلا في قصة تروى عن أوثلوس Euathlus أحد تلاميذ بروتاغوراس الذي اتفق مع هذا الأخير، على أن لا يدفع له مالا إلاّ إذا تحققت له القدرة على الخطابة خلال مدّة محددة، وبعد انقضاء المدة، لم يدفع التلميذ أجر أستاذه بحجة عدم تعلمه أيّ شيء من الخطابة في المدة المعلومة، فتخاصما أمام القاضي، وكانت نتيجة التقاضي وفق المعادلة التالية: إن فاز بروتاغوراس يعني أنه لم يُعلِّم التلميذ شيئا، لأنه لم يستطع أن يحاجج أستاذه، وإن فاز التلميذ سيثبت بأنه لم يتعلم شيئا، وفي الحالتين سيخسر بروتاغوراس القضية.[29] نخلص إلى أن بروتاغوراس عمل على إثبات فكرة أن لكل شيء برهانين متناقضين، وأن الحقائق متغيرة حسب تغير الإنسان، وهذا تكريس لنسبية المعرفة، بل أكثر من ذلك، فقد هدم كل مرجعية دينية تلغي التناقض، حين أظهر شكّه في وجود الآلهة، بسبب غموض موضوعها وقصر الحياة، الذي يحول بين الإنسان وفهم ذلك الموضوع.

5 – غورجياس: من التناقض إلى اللّغة كمعيار للحقيقة: اهتم غورجياس في بداية حياته بالعلوم الطبيعية، لكنه تأثر بجدل زينون الإيلي Zeno of Elea (490 – 430 ق م) واتجه نحو النزعة النسبية.[30] ألف غورجياس كتابا عرف بـ: "في اللاوجود" أو "في الطبيعة" ويحمل هذا الكتاب عبارة شهيرة محملة بالمفارقات وردت عن غورجياس يقول فيها: "لاشيء يوجد، وإذا وجد شيء فلا يمكن معرفته، وإذا عرفناه لا يمكن نقل معرفتنا به إلى الآخرين"، كما اعتبر غورجياس فن الخطابة بأنه التمكن من فن الإقناع الذي سيقود إلى غايات عملية خيرة وشريرة في آن واحد.[31]

إن فن الخطابة عند غورجياس قائم على جدل التناقض، وذلك ما تتضمنه مقولته الشهيرة المكونة من ثلاث قضايا.[32] في هذه المقولة يقوِّض أساس المعرفة بل والحياة نفسها، فالقضية الأولى: "لاشيء يوجد؛ والقضية الثانية: " وإذا وجد شيء فلا

يمكن معرفته"؛ والقضية الثالثة: "وإذا عرفناه لا يمكن نقل معرفتنا به إلى الآخرين"، وهذه القضية الأخيرة تقوض القضايا الثلاثة مجتمعة، ويظهر جدل التناقض بحيث أن القضية الثانية تحمل نقيض الأولى والقضية الثالثة تنفي الثانية، وبالتالي لا يمكن تعليم الناس شيء غير موجود أساسا، وفي ما يلي سنحاول إظهار فكرة غورجياس التي تجعل الحقيقة مؤسسة على اللّغة من خلال هذه القضايا الثلاثة.

القضية الأولى: لا شيء يوجد، فالوجود إما قديم أو حادث، فإذا كان حادثا فهو إما صادر عن موجود مثله أو عن عدم، وهذا غير ممكن، وإما أنه قديم، لكن تستحيل اللانهاية في القدم.[33] إن عبارة الوجود المجردة التي استعملها غورجياس تعود، في الحقيقة إلى بارمينيدس، على الرغم من أن المعنى الأساسي للكلمة هو "النظام" أو "الانسجام"، وقد أخذت مع غورجياس غطاء من العبارات الزائفة، لتصبح في وقت لاحق ضمن اللّغة المنمق وزخرف القول.[34]

القضية الثانية: إذا كان هناك وجود فلا يمكن معرفته، لأن الفكر مختلف عن الواقع، إذًا لا يمكن التفكير في ما ليس موجودا، يعني أنه ليس هنالك تطابق بين الفكر والواقع،[35] وهذا يدل فقط على طريقة معينة لإدراك شيء ما، وليس القدرة على فهم الأشياء بشكل عام.

إن ما يمكن التفكير فيه يتطلب أن يكون مطابقا للأشياء في الواقع، لكن كل ما ليس موجودا، يتطلب منا إنكار إمكانية التفكير فيه أصلا، وفق ما هو موجود وما يمكن التفكير فيه،[36] ومادام القول فعل، والفعل إنتاجا، فلا يمكننا أن ننتج ما ليس موجودا، لكن لو كانت هذه الحال، فإنه لا يمكن الحديث عن الخير إلاّ إذا كنا أخيارا، ولا عن الشّر إلا إذا كنا أشرارا.37 حسب غورجياس أن من يقول قولا ما، لا يقول لونا أو

شيئا، والقول لا يخرج عن ذاته، فهو غريب عن حقيقة الأشياء، وان كل ما يمكن أن يقال يكون موجودا.[38]

القضية الثالثة: إذا كانت هناك معرفة فلا يمكن نقلها إلى الآخرين، لأن الإشارة تختلف عن المشار إليه، فإذا قلنا عن اللون أنه أحمر فكيف يمكن للسمع أن يستقبل حقيقة صادرة عن البصر، أي كيف ينتقل اللون بكلمات تصدر عن نغمات الصوت.[39] إن العدمية التي عبّر عنها غورجياس، دفعته إلى تأسيس حقيقة تقوم على الخطابة في محاولة لتحويلها إلى واقع في معتقدات سامعيه.

إن الأسلوب الخطابي الذي سلكه غورجياس يولد تأثيرات مرغوبة نفس من يسمعه فيقوده إلى قبول آراء غير صحيحة لأن لغة المخاطب تتضمن تضليلا مخادعا، وكثيرا ما تنطلي هذه المخادعة على الأشخاص الذين لا يمتلكون معرفة بأشياء يتضمنها الخطاب الذي يتلقونه، وبالتالي فاللغة عند غورجياس ليست إلاّ أداة للإقناع، وأن الإقناع لا يعدو إلاّ أن يكون وسيلة للخداع.[40] في هذا الصدد يتساءل جوناثان بارنس Jonathan Barnes في كتابه: الفلسفة ما قبل السقراطية، كيف وصل غورجياس إلى نظريته الكاذبة المؤثرة؟ ويقول أظن أنه بسبب تأثره القوي بالأعمال الفنية، وتبدو استجابة عقلانية للأعمال المسرحية، التي تغرس مختلف المشاعر من خلال خداع المسرح، فيشعر الإنسان بالحزن على الرغم من أن الحوادث ليست واقعية، لذا يكون الفنان عظيما متى استطاع تحريك مشاعرنا.[41] إن الموضوع الحقيقي لغورجياس في النهاية هو الخطابة، وكما وضّح لنا أفلاطون في المحاورة التي وضعها باسم غورجياس في نقاشه مع سقراط تعريف الخطابة، على أنها فن الإقناع، ولكن بما أن هذا الإقناع يتعلق بالعدالة والظلم، يجب علينا أن ندرك ماهية العدالة والظلم.

يعود سوء استخدام الخطابة إلى السياسيين الأثينيين، فقد سعوا لأجل إرضاء الناس فقط بدلاً من تحقيق العدالة، لأن الخطيب الحقيقي ليس له سوى العدالة وحسن النية، فالمفارقة تكون فينا وليس في الشيء نفسه، ويمكن القول إن النجاح بالضرورة يناقض ظاهريا الفشل.[42] وفي الواقع حسب رأي أفلاطون في اعتراضه على رأي غورجياس، تكون الأشياء مختلفة فيما بينها، لا يمكن أن تتعايش معا في نفس الشيء، مثل السعادة والتعاسة، والصحة والمرض: عندما يأتي المرض على سبيل المثال، تختفي الصحة والعكس صحيح، فإذا كان هذا صحيحًا، يعني ذلك أن الأشياء التي قد تكون معًا في نفس الشيء، والتي تأتي وتذهب في الوقت نفسه، لا يمكن أن تكون جيدة أو سيئة، لأن الخير والشّر استبعاد بعضهما البعض، لكن عندما يُرضي المرء رغبة، ألا يكون مفهوم المتعة متزامناً مع الحاجة وبالتالي مع الألم الذي تسببه الرغبة؟ أوَلا تتعايش المتعة والألم معًا؟ ومن هنا فالمتعة والألم يختلفان عن الخير والشر.[43] إن رؤية غورجياس للخطابة، مثلها مثل أي شيء آخر، عرضة للإساءة، ولكنها ليست مسؤولة عن إساءة استخدام المتحدثين غير الأمناء، ومن الملاحظ أن الخطابة السفسطائية بلغت ذروتها مع غورجياس وهو ما نستشفه من محاورات أفلاطون التي كلما بحثت في مسألة، إلاّ وكانت مسألة التناقض حاضرة بقوة فيها، كالخير والشر، الظلم والعدل، الشقاء والتعاسة.

6 – خاتمة

بعد أن اتجه الفكر اليوناني القديم إلى البحث في طبيعة الوجود، ثم إلى البحث في الإنسان من أجل الوصول إلى تفسير الأشياء، وفهم ما يدور من حوله وفق تفسير طبيعي ومنطقي، توصّلنا إلى أن مسألة التناقض بين عناصر الطبيعة وصفاتها وأحوالها وكذا في المنطق الإنساني وخطابه ولغته، كانت حاضرة بقوة في الفكر اليوناني القديم، وساهمت في إثرائه وفي تطوير الآراء الفلسفية آنذاك، وقد انتقلت

فكرة التناقض مع الحركة السوفسطائية، من تناقض في الوجود إلى تناقض في المعرفة الإنسانية وفي الخطاب، فبروتاغوراس طرح فكرة أن لكل شيء برهانين متناقضين، وأن الحقائق متغيرة حسب تغير الإنسان، وبذلك سعى إلى تكريس نسبية المعرفة، بل وأكثر من ذلك، هدم كل مرجعية دينية تلغي التناقض، حين أظهر شكّه في وجود الآلهة، بسبب غموض موضوعها وقصر الحياة لفهمه، كما تتضح المكانة التي خصّ بها غورجياس اللّغة، انطلاقا من جدل التناقض، ليصل إلى أن الحقيقة لا وجود لها، إلاّ في اللّغة، وهذا ما دفعه إلى تأسيس حقيقة قائمة على الخطابة في محاولة منه لتحويلها إلى واقع لدى سامعيه.

إن الحقيقة عند اليونانيين القدامى على هذا المنوال قائمة على التناقض وعلى وحدة للأضداد، ذلك أن التلازم بين تلك الأضداد يعد تلازما جوهريا لبنية الأشياء، ويتجلى في جمال الطبيعة والحياة واللّغة.

5.المراجع:

[1] ثيوكاريس كيسيديس، هيراقليطس جذور الديالكتية المادية، ترجمة حاتم سلمان، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1987، ص 113.

[2] مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 109.

[3] نفسه، ص 55.

[4] André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Vol. 1, PUF France, e édition 4, 1997, p 185.

[5] Richard D. McKirahan, Philosophy Before Socrates, Hackett Publishing Company Inc, United States of America, Second Edition , 2010, p 47.

[6] Diogenes Laertius, lives of eminent philosophers Translited by: C. D. Yonge, M.A. G. Bell and Sons, LTD. London, 1915, p 383.

[7] Richard D. McKirahan, Philosophy Before Socrates, p 63-64.

[8] Aristotle, Metaphysics, Joe Sachs, Green Lion Press, New Mexico, 1999, p 12 (986a 10 - 986a 20)
[9] Ibid, p 107.
[10] ثيوكاريس كيسيديس، هيراقليطس، ص 109 – 110.
11 Giovanni Giorgini, The Power of Speech: The Influence of the Sophists on Greek Politic, in Cinzia Arruzza and Dmitri Nikulin, Philosophy and Political Power in Antiquity, Prill, Leiden Boston, 2016, p 10.
[12] Plato, Protagoras, p 13- 14. (316 c-e 317 a – b)
[13] Jonathan Barnes, The Presocratic Philosophers, Rutledge London and New York, 1979, p 353.
[14] جان بران، سقراط، ترجمة فاروق الحميد، دار الفرقد للطباعة والنشر، دمشق، 2008، ص89.
[15] فردريك كوبلستون ،تاريخ الفلسفة المجلد1، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2002، ص 138.
[16] Jonathan Barnes, The Presocratic Philosophers, Routledge, London and New York, 1979, p 353.
[17] Plato, Protagoras, Translation: Benjamin Jowett, Bobbs-Merrill, New York, p 07, (312 a).
[18] Platon, Sophist, Traduction Emile. Chambry, Garnier-Flammarion, Paris, 1969, p 70, (231d – e)
[19] جان بران، سقراط، ص 88.
[20] Plato, Protagoras, p 09, (313 d)
[21] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ص 139.
[22] Diogenes Laertius, lives of eminent philosophers, p 397.
[23] Ibid, p 398.
[24] B. A. G. Fuller, History of Greek Philosophy: the Sophist Socrates Plato, Henry Holt and Company, INC. 1931, p 27.
[25] Diogenes Laertius, lives of eminent philosophers, p 397 - 398.
[26] Ibid, p 398.
[27] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة ، ص145.
[28] Platon, Sophist, Traduction Emile. Chambry, Garnier-Flammarion, Paris, 1969, p145. (268 d)
[29] Diogenes Laertius, lives of eminent philosophers, p 399.
[30] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج1، ص 148.

[31] نفسه، ص 150.

[32] Richard D. McKirahan, Philosophy Before Socrates, p 394.

[33] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة،ج1، ص 149.

[34] Robert Wardy, the Birth of rhetoric, Routledge, London and New York, 2005, p 29-30.

[35] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة،ج1،ص 149.

[36] Victor Castonm, Daniel W. Graham, Presocratic Philosophy, Ashgate, 2002, p 218.

[37] مونيك ديسكو، أفلاطون الرغبة في الفهم، ترجمة حبيب الجربي، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط1، 2010، ص 88.

[38] نفسه، ص 89.

[39] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ص 149.

[40] Juan Pablo Bermúdes, Truth and Falsehood for Non-Representationalists: Gorgias on the Normativity of Language, Journal of Ancient Philosophy; v. 11, n. 2. 2017, p 1-21.

[41] Jonathan Barnes, The Presocratic Philosophers p 397.

[42] Robert Wardy, the Birth of rhetoric, p 22.

[43] أفلاطون، غورجياس، ترجمة حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص 125. (507 ب).